ملك فى الزحمة

بقلم : فتحى محمد عبد الفتاح

الجو خانق والزحمة على اشدها.. المكان حافل بشتى انواع الشباب من مختلف الاماكن ، الناس يتوافدون فرادى وجماعات يبتسم كل منهم ابتسامة مرسومة ويتخذون اوضاعا وبوزات يتقنونها تماما بعد ان تعودوا عليها . وتسرى فى المكان همهمة وفى بعض اللحظات تنفجر ضحكة من بعض الجالسين تحس بأنها ضحكة لها طابع خاص ورنين مقصود .. ويبدأ المكان يعج بالوافدين وتسمع خرخشة الكراسى وهى تنتقل من مكان الى آخر فتزيد الضجة وترتفع وتحس للمكان بطابع فريد يعرفه كل من الفه واعتاد عليه .. وتقترب الساعة من التاسعة ويزداد الوافدون كثرة وعددا ويلتصق كل منهم بالآخر حتى تنفد المقاعد ولايجد الوافدون متسعا يكفيهم فيحاول كل منهم مخلصا ان يشرك زميله فى مقعده وهو مغتبط مسرور بهذا .. ربما لم يكن يعرف اسمه او مهنته فى الحياة ولكنهم قد تآلفوا وتجاوبت نفوسهم وتآلفت ارواحهم فكأنهم أنداد عرف كل منهم نده منذ زمن بعيد ..

وانا جالس فى المكان وسط الضجة والزحمة . ورغم انى آنس لهم الا أنى احس بأننى فريد ومعزول عنهم رغم انى اشاركهم جلستهم وهوايتهم ..ان المكان اصبح كتلة من اللحم البشرى ، الاجساد متلاحمة والناس ملتصق كل منهم بالآخر ، وتقترب لحظة يعج فيها الجمع بالضجيج وتطفح قلوبهم بالسعادة والامل .. آه .. وتعلو وجوه وتشرئب أعناق وترقص ابتسامات على الشفاه وتتسمر نظرات آملة وترتسم خيالات أفراح فى الاعين وعقارب الساعة تزداد قربا من التاسعة مساء .. وتنصب العيون كلها عليه .. ها لقد حضر شفيق ؟! .. الكل يأخذ بوزا معينا وتلوح الايدى وتصفق والوافد يقبل متمخطرا تملأ نفسه السعادة ويعمر كيانه الفرح ويقبل على الجمع السعيد مرسوما كأنه امير حضر للتو ليتوج ملكا ..

ثم يمشى بين الجمع الحاشد .. لا .. يتهادى يوزع النظرات وينثر البسمات بالعدل والحق والقسطاس المستقيم.. نعم انه عادل فلكل شخص عنده منزله مختلفة ومكانة فريدة تبعا لمعاملاته واخلاصه وتفانيه لعمله فى هذا المجتمع الذى يعيش فيه ... كل هذه الليالى التى شاركت فيها الجمع

السعيد – وهي ليال كثيرة – كان المفروض ان اتجاوب فيها مع شفيق صاحب هذا الحشد الا انني فشلت تماما فى ارضائه وكان فشله فى ارضائه ابعد من فشلى انا .. لم اعرف لماذا .. ربما كنت افتقر الى تلك القدرة التى يتمتع بها بقية الجمع ولذا فانني اعتبر نفسى فقط السبب فى فشل تلك العلاقة بينى وبين هذا المخلوق العظيم ؟ !! ....

لم اكن اعرف المكان الى ان دلنى عليه صديق عزيز اكن له مزيدا من الحب والاخلاص .. دلنى عليه وحكى لى عن هذا الانسان القدير الذى يبعث فى روح الجلسة والجمع جوا سعيدا وسعادة خالصة ترضى الجميع فيقضى كل منهم وقته حالما مبسوطا غاية الانبساط .. علاوة على ان هدف المكان كان أملى بل وغاية ماكانت تصبو اليه نفسى وتهفو اليه روحى الشاردة.

نسيت ان اقول ان شفيق يشتغل جرسونا .. جرسون قهوة الحرية التى تحتل مكانا مرموقا فى وسط العاصمة .. ولو اننى وجدت فى القاموس كلمة اخرى مهذبة تليق بمكانة شفيق لما ترددت لحظة واحدة فى اسباغها عليه ووضعها فى مقدمة اسمه ولكن لم يكن لواضعى اللغة معرفة بعلم الغيب حتى يتكهنوا بانه سيخلق فى يوم من الايام نوع من الجرسونات له ذلك الطابع الفريد مثل شفيق !! والحق ان شفيق يختلف كثيرا عن بقية الجرسونات . ورغم انه يقدم الطلبات للزبائن مثل بقية زملائه الا انه مميز عليهم فى كل شىء ، من الزبائن ومن صاحب المقهى نفسه .. والدليل على تمييز صاحب المقهى له انه هو الوحيد الذى حدد له ساعات محدودة يقوم فيها بعمله بعكس بقية الجرسونات الذين يبدأون عملهم فى الصباح ساعة افتتاح المقهى الى ان تقفل ابوابها فى المساء ، اما شفيق فله ساعات عمل محدودة تبدأ من التاسعة مساء حتى الثانية بعد منتصف الليل .. يقال ان بعض الزبائن يسمونه الجرسون الفرست ويقال ان بعضهم – وهم المخلصون من جمعه – يرفض مناداته بتلك الكلمة .. والمؤكد ان شفيق نفسه يكره هذه الكلمة ويرفض رفضا باتا ان يسميه احد بكلمة «جرسون».

يقول هذا دائما لمن يخطىء ويناديه بها : « انا مش جرسون .. ياأستاذ لولا هوايتى لفن سلطان الطرب ماكان يبقى مكانى هنا ابدا .. هنا ؟!! بقى دا كلام ؟ .. ياسيدى وشرف النبى لو بدور انا على فلوس كنت قعدت فى ورشة النجارة بتاعتنا .. بتجيب دهب .. انما وكتاب الله العظيم بس الواحد هو اللى غوى الفن والطرب من صغره .. ودا طرب على اصوله .. مزاج !! ياسلام عالمزاج لما الواحد يمسك الشريط كده ويشغله بايده .. مزاج صحيح .. سيبك م الدنيا .. المزاج هو كل حاجة .. طب ايه رايك ان انا ساعات باادفع فلوس من جيبى عشان المزاج ده .. وكتاب الله بادفع من جيبى .. »

وسلطان الطرب هذا الذى يقول عنه شفيق هو الذى جاء بهذا الجمع الى المكان الذى تدفعنى اليه قوة خفية وتجذبنى اليه جذبا ، نعم لقد جئت كما جاء الكل اصلا لسماع معبودى

ومطرب قلبى وفؤادى المطرب العاطفى الكبير محمد سامى . فبمجرد أن دلنى صديقى عن هذا المقهى الذى افرد مكانا خاصاولائقا لتذاع فيهاسطوانات معبودى واسطواناته فقط حتى عودت نفسى على انتهاز كل الفرص التىتتيح لى أن انعم بتلك الساعات الجميلة النادرة التىلاتعوض .. وطبعا لم يكن هناك من يقوم بهذه المهمة من بين الجرسونات الا شفيق .. بل يقال انه هو الذى أوعز الى صاحب المقهى بهذه الفكرة الجميلة النبيلة التىتخدم الفن وعشاق الفن وعلى راسهم رواد المقهى أو الجمع السعيد كما يحب هو ان يسميهم .

وعلى هذا مضى يوزع ابتساماتهعلى الجمع حريصا كل الحرص على الايقلل هذا من ثباته واتزانه اللذين اتقنهما تمام الاتقان محاولا جهده بطريقته الخاصة أن يقع فى نفس الكل موقعا حسنا ممتازا ..

ومن الغريب انه كانت تأتى لحظات يعالج فيها الامر بطريقة اخرى عكسية عكس الابتسامات تماماعندما كنت المح على وجهه علائم الضجر والتبرم تجاه نفس الذين تعود هو أن يبتسم لهم فلم يكن هذا يقلل من سعادتهم بل على العكس تزيدها ثباتا واتقانا وتعطى للجلسة اهمية قصوى يتجاوب فيها الجميع وتتآلف أرواحهم فلا يلبثون ان يهيموا فى ذلكالعالم السحرى الذى خلقه لهم ذلك الانسان الفريد ..اقول الحق .. لو لم يكن لشفيق وجود بين هذه الجماعة لكان للمكان وقعوصدى آخران فى نفوس الحاضرين من المؤكد انه لابد وان يكون اقل اثارة واهمية مما لوجد شفيق فيه.الجلسة أصبحت مضطربة والجميع اعصابهم مشدودة نحو شفيق والقلق باد على الوجوه ونظرات ارتشاء وجذب انتباه ورجاء تنصب عليه قد ينظر اليها احيانا وقد يجيب عليها بعينيه ولكن فى اغلب الاحيان ماكان يغض الطرف عنها ولكنها كانت تكسو جسمه وكيانه بموجات مشعة تضىء وجهه وتلمع فى عينيه ثم تنعكس على الجمع فكانها قد سقتهم خمرا فتزيد الهمهمة ويزيد القلق الممزوج بالفرح والسعادةوتبرق العيون متلهفة نحوه ضارعة سائلة وتحيط وجهه من جميع الزوايا والاركان حتى ليخيل الى انه اصبح شيئا ضئيلا من كثرة ماأكلت منه العيون والانظار او اخاله سيضطرب ويتوه عقله ولشد ما تأخذنى دهشة عارمة عندما اراه فى لمحة خاطفة يغير من وجهته مختلقا مشكلة ما وفى لمح البصر يلتفت الى احد المقربين اليه بابتسامة او تكشيرة تذهب من حرج الموقف وتخلق جوا جديدا يحرك هو دفته ويكون المسيطر على الجو مرة اخرى فتبدااالوجوه والانظار فىمجاراته كانها مجرورة وراءه بحبل قوى متين او تراهم وقد عجزوا عن مجاراته ـ وكثيرا مايحدث فهو حريص على مفاجآته الغامضة ـ فتنسدلالرموش على الاجفان حيرة وضياعا وقد يدارى بعضهم حيرته فىالثرثرة مع جاره ..

ومع أن هذه كانت المرة الخامسةاو السادسة التى اتيح لى فيها الحضور الى المكان الا اننى لم أستطع فى المرات السابقة مجاراة الجمع والاندماج فيه اندماجا من شانه أن يجعلنى عضوا «نافعا» فى ذلك المكان الذى تتميز فيه

عادات وتقاليد خاصة ويسيطر عليه ابتكيت مميز حتى أصبح له قدسية يحترمها الجميع .. الا انني حاولت في تلك الليلة أن أدرب نفسي واعودها بل واروضها على أن تندمج اندماجا كليا مع هذا الجمع ومع شفيق رائده بالذات حتى اصبح عضوا فعالا في ذلك المجتمع الجديد .. ولذا فقد صممت في سريرتي على أن أمرسها على هذا العمل حتى ولو لم تقتنع بذلك ، حدث لي هذا الخاطر في الوقت الذي لانت فيه قناة شفيق واعتدل امام آلة التسجيل ليعلن بداية ليلة خالدة من ليالي الدهر .. وكان حاذقا يجيد استعمال ذلك الفن فقد خصص لكل ليلة اغنية من الاغنيات الخالدة تذاع في تلك الليلة وكانت الليلة ليلة الثلاثاء ليلة اغنيتي المفضلة واعتقد انها ايضا كانت مفضلة لدى الجميع ..

تأكد لي ذلك عندما سمعت من بعض الجالسين حولي وهم يتناقشون في سر عظمتها وأهميتها ... لذلك فقد عادت ابتسامات الارتشاء ترتسم على الشفاة ونظرات الاستجداء تملأ الأعين وشفيق متفاعل في بعض الاحيان ومجيب بايماءة بسيطة في أحيان أخرى والكل تنساب خيالاتهم مع أمل سماع تلك الأغنية المحبوبة .. وألهب خيالهم أكثر تلك البسمة التي أجاد شفيق صنعها على شفتيه فكادت القلوب أن تقفز من الصدور وكادت الأعين أن تخرج من محاجرها ، وتمايلت الرءوس فسيطر على القاعة رضا وشملها سكون تام .. وفي تلك اللحظة وبسرعة خاطفة وضع شفيق شريطا على آلة التسجيل وبأسرع مما يتصور المرء ترك مكانه من أمام الآلة وغادره بعيدا وعلى وجهه أيضا تعبير أجاده وأتقنه لكثرة ما تعود عليه كان يميزه تلك البسمة المعتذرة المملوءة بايفاء الوعد في الوصلة التالية ... ولكن كان أهم منها تلك الرقصة التي كانت ملحوظة تماما في عينيه والتي أدهشتني وأدخلت في قلبي الرعب في أول ليلة حضرت فيها الى المكان وأيقنت تماما انها كانت تغمر بدنه كله بسعادة طاغية .. سعادة لا نهاية لها .. سعادة لم أستطع أن أفسر لها سببا الا عندما تأكدت أنه أدار شريطا غير ذلك الذي كان يرجوه الجميع ويتهافتون عليه .

وهكذا فهو دائما بعد ثم يتدلل ويمعن في الدلال ويصطاد نقطة الضعف في زبائنه ثم يسوقهم وراءه فيصبحون طوع بنانه ... ولذا لم يضجرهم هذا كثيرا فقد تعودوا عليه ثم انه كانت كل أغاني مطربهم ومعبودهم مفضلة لديهم .. ثم ألم يعدهم بأنهم سينالون حتما كل ما تهفو اليه قلوبهم وأرواحهم في الوصلة القادمة ؟ .. اذن لم الضجر والقلق والليل طويل والأنس مقبل وهذه الليلة ستكون ـ ككل ليلة ـ ليلة أنس وانسجام ؟ .. ولم ينس أن يغادر خارج المقهى بعض اللحظات ليكمل اجادة خطة تمرن عليها تماما وليترك الحالمين ليحلموا وليسمعوا ويمتصوا من الرحيق ويشربوا كئوسا مترعات من خمر مناهم .

وثقلت الرءوس واهتزت وانسدلت الرموش على الأجفان وانحنت الأجساد بعضها الى الوراء والبعض الى الأمام وسيطر على المكان سكون الليل وتاهت العقول وغابت في عالم آخر صنعوه لأنفسهم وبحركة أصبحت مألوفة تحركت الأيدي ـ كل الأيدي ـ بدون أن تشعر ، تحركت وتسللت الى الجيوب ولمعت لفائف التبغ وتقابلت مع

الشفاه لتعيش معها فى قبلة طويلة ليس لها مدى ولا نهاية طالما مد الله فى عمر الساحر وطالما كانت هذه الأنغام تملأ المكان ويفوح أريجها ليعطر هواء المقهى ٠

أما صاحبنا فقد تريث بعض الوقت خارج المقهى ليجمع كل قواه فى تلك المرحلة النهائية والتى تعتبر أهم مرحلة فى خطته ٠٠ ثم عاد تملأ فمه ابتسامة يعرفها كل فرد فى جماعته وبحركة مألوفة والألحان منسابة كهدير الماء جاوبته كل الشفاه المتلاحمة والمتراصة أمامه ٠٠ جاوبته ببسمات رضا وصفاء وود واخلاص ، وتجاوب معه كل عضو وأدوا واجبهم تماما عندما عبق هواء المقهى بنفثات الشيشة ولفائف التبغ٠٠ وتقارعت زجاجات الغازوزة تحدث صوتا ودويا يرنان وسط سكون الليل ويحدثان مع نغمات الموسيقى نغمة جديدة يعرفها كل أعضاء الجمع السعيد ويعرفها شفيق نفسه فتعكس على وجهه لمحات مضيئة يحاول جهده اخفاءها بطريقته الخاصة والتى كانت تقتلنى من الغيظ والحقد ٠٠ ورغم ذلك فلم تستطع تلك اللمحات المضيئة على وجهه أن تمنعنى من أن أتشبث بما استقر عليه رايى فى تلك الليلة من أن اكون عضوا «فعالا» فى هذه الجماعة ٠٠ عضو يرضى عنه شفيق عندما يتهادى وسط الجمع ينثر بسماته لكل الاعضاء الى أن يقترب منى فأحس بوخزات ضمير تؤلمنى عندما يمر بى فلا أحظى بابتسامته التى يخيل الى انها تسكب النور والامل فى قلوب رواد المقهى فأحس ساعتها بأن المطرب لن يكون له هذه القدرة على امتاع المستمعين ما لم تكن هناك تلك البسمة التى يهديها شفيق لجمهوره ، والح على الخاطر مرات أخرى ومرات فى الوقت الذى بدأ فيه شفيق يفى بوعده ويذيع الأغنية التى كان يتلهف عليها الجميع ويشتاقون لسماعها ٠

ووجدت عقلى يلف ويدور وقلبى ينساب مع خيالات حالمة لذيذة من السعادة والاستمتاع بالمزاج الذى يعيش من أجله أفراد الجماعة ٠٠ وأساريرى تنبسط رويدا رويدا عندما بدأت يدى تتحرك لا شعوريا وتندس فى جيبى لتخرج سجائرى البلمونت فأخرج منها سيجارة أناولها له ولسانى يتحرك ليخرج نغما لم أشعر بمثل حلاوته من قبل وينادى بأحلى صوت : « شفيق.. مساء الخير ٠٠ »

فى تلك اللحظة لم أشعر بالتعبير الذى اكتسى به وجهه والذى كان ممزوجا بخليط من عجب المفاجأة مع فرحة طاغية حاول أن يخبئها ولكن لم يتمكن من ذلك ٠٠ نعم لم أشعر بهذه التعبيرات التى اكتسى بها وجهه ولم أشعر به وهو ـ ولأول مرة ـ يدنو منى منحنيا انحناءة كبيرة لم أتعودها من قبل ـ حتى مع المفضلين من جمعه ـ وفمه يهدر بكلمات شكر يخالطها نوع من الاحترام أقرب الى الخنوع والنفاق ٠٠ لم أشعر بهذا أو ذاك فقد كان يسيطر على شعور جديد بالراحة والطمأنينة لأننى أحسست فى هذه الليلة ـ ولأول مرة أيضا ـ بأننى قد أصبحت عضوا جديدا فى الجمع السعيد ٠٠ عضو يرضى عنه شفيق تماما، وزاد الاحساس مرة أخرى وتمكن من نفسى حتى شعرت بنوع من الخيلاء يجرى مجرى الدم فى عروقى عندما كنت واقفا أمامه فى آخر السهرة وهو ينحنى أمامى انحناءة لم أره يتكرم بمثلها

على اى عضو من الاعضاء فى اللحظة التى كنت أمد فيها يدى اليه بقطعة فضية من قيمة نصف الريال وعلى شفتى تضىء ابتسامة مرسومة يعرفها كل فرد من أفراد الجمع ثم أحرك راسى بايماءة بسيطة غير منتظر لأعرف باقى الحساب وحال لسانى يقول : « خلاص .. خلاص يا شفيق سعيدة» . ساعتها لم أنتظر لأرى ابتسامته التى أصبحت أميزها تماما لانها ـ ورغم الحاحى وعملى المستحيل للحصول عليها ـ ما زالت تدخل فى قلبى رعبا هائلا لم أستطع حتى الآن أن أتخلص منه رغم أننى أصبحت من الاعضاء الدائمين فى الجمع السعيد ، ذلك الجمع الذى يقول عنه شفيق انه أضاع فيه مستقبله من أجل عيون الفن ورواد الفن الأحباب ..

ودارت الايام دورتها العادية وأنا أقتطع كل ليلة جزءا كبيرا من مرتبى الضئيل أهديه قربانا للفن النبيل ممثلا فى شخصية شفيق ، ولم يكن فى مقدورى أن أتبين فى غمرة ذلك هل أنا راض أم متراض .. فقط عشت فى دوامة الجو الذى هيأه هذا المخلوق لأعوانه .

شىء واحد روعنى وجعلنى أقف مشدوها بلا حراك لا أعرف ماذا حدث وما الذى كان يحدث .. ذلك اننى عندما عدت من القرية بعد ان أمضيت فيها أجازتى الصيفية ألفيت جوا جديدا صدمنى من أول وهلة .. الجمع السعيد ما زال حيا يعيش ويتنفس ولكن بلا شفيق ؟!! .

وعندما خبرت أنه قابع فى السجن لأن صاحب المقهى اتهمه بابتزاز نقود الزبائن « بطريقة جشعة وشكل غير معقول » ؟!! ولفق له تهمة دخوله السجن .. ساعتها فقط شعرت بأننى ارتحت وارتاحت نفسى من هذا الرعب الذى صاحبنى فى أول ليلة رأيت فيها شفيق والذى اتضح أنه ما زال كائنا فى نفسى وان خفى فى غمرات اندماجى اللاشعورى فى الجمع .. لحظتها ارتحت فعلا وامتلأ جسدى كله بالتشفى الحاقد الى .. لا لا لا .. ليس الى شفيق .. نعم ليس الى ذلك الماهر الذى آن له أن يقع .. ولكن وجدت ان هذا التشفى يتجه كلية وفى دفعة واحدة الى ذلك الجمع « الذى لم يعد سعيدا بعد » ..

وعندما كنت أخطو خطواتى عائدا من حيث أتيت الى غير رجعة كان يخيل الى ان لكل شىء عذرا ... ولكل جريمة مشهيات .. وان ليس رزق الهبل على المجانين فقط .. وأن ليس هناك قضية اسمها : « أنا فعلت لأننى تشجعت» .. لم يخيل الى ذلك فقط بل خيل الى أن هناك سؤالا ساذجا يدور فى خاطرى وان كنت ـ حتما ـ لا أستطيع أن أسأله علنا لأنه سؤال ساذج فعلا .. هذا السؤال مؤداه : لماذا يذهب الناس الى السجون ؟!! » .